

الحيوالمختوم

بَحْثٌ فِي السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ
عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ

تأليف
فضيلة الشيخ
صفي الرحمن المباركفوري
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة



رَاجِعَ الْمُؤَلِّفَ حَفِظَهُ اللهُ هَذَا الْكِتَابَ
عَامَ ١٤١٨ هـ وَأَضَافَ بِهِ فَوَائِدَ مَهْمَةً



دَارُ السَّلَامِ
لِلنَّشْرِ وَالرِّوَايَةِ
الرِّيَاضِ

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - عبارة في الحقيقة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشري، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله. ولا يمكن إحضار صورتها الرائعة بتمامها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وآثارها. ونظرًا إلى ذلك نقدم فصلا عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام، وعن الظروف التي بُعث فيها محمد ﷺ.

موقع العرب:

كلمة العرب تنبئ عن الصحارى والقفار، والأرض المجذبة التي لا ماء فيها ولا نبات. وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب. كما أطلق على قوم قطنوا تلك الأرض، واتخذوها موطنًا لهم.

وجزيرة العرب يحدها غربًا البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وشرقًا الخليج العربي وجزء من بلاد العراق الجنوبية، وجنوبًا بحر العرب الذي هو امتداد لبحر الهند، وشمالًا بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف في بعض هذه الحدود، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى ثلاثمائة ألف ميل مربع.

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي؛ فأما باعتبار وضعها الداخلي فهي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصنًا منيعًا لا يسمح للأجانب أن يحتلوها ويبسطوا عليها سيطرتهم ونفوذهم. ولذلك نرى سكان الجزيرة أحرارًا في جميع الشئون منذ أقدم العصور، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتها لولا هذا السد المنيع.

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم. وتلتقي بها برًا وبحرًا. فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة إفريقية، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم وآسيا الوسطى والشرق البعيد. وتفضي إلى الهند والصين، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بحرًا، وترسي سفنها

الحكم والإمارة في العرب

حينما أردنا أن نتكلم عن أحوال العرب قبل الإسلام؛ رأينا أن نضع صورة مصغرة من تاريخ الحكومة والإمارة والملل والأديان في العرب، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام.

كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام قسمين: قسم منهم ملوك متوجون، لكنهم كانوا في الحقيقة غير مستقلين، وقسم هم رؤساء القبائل والعشائر، لهم ما للملوك من الحكم والامتياز، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال. وربما كانت لبعضهم تبعية لملك متوج، والملوك المتوجون هم ملوك اليمن، وملوك مشارف الشام، وهم آل غسان، وملوك الحيرة، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة فلم تكن لهم تيجان.

الملك باليمن:

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، وقد عثر على ذكرهم في حفريات «أور» بخمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد. ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرناً قبل الميلاد.

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي:

(١) ما بين ١٣٠٠ - إلى - ٦٢٠ ق.م، عرفت دولتهم في هذا العهد بالدولة المعينية، وكان ملوكهم يلقبون بـ «مكرب سبأ» وكانت عاصمتهم بلدة «صرواح» التي توجد أنقاضها على مسافة ٥٠ كيلومتراً إلى الشمال الغربي من بلدة «مأرب» وعلى بعد ١٤٢ كيلومتراً شرقي صنعاء، وتعرف باسم «خريبة» وفي زمنهم بدأ بناء السد الذي عرف بسد مأرب، والذي له شأن كبير في تاريخ اليمن، ويقال إن سبأ بلغوا من بسط سلطنتهم إلى أن اتخذوا المستعمرات في داخل بلاد العرب وخارجها.

(٢) ما بين سنة ٦٢٠ ق.م إلى سنة ١١٥ ق.م عرفت دولتهم في هذا العهد بدولة سبأ، وفي هذا الزمن تركوا لقب «مكرب» وعرفوا بملوك سبأ، واتخذوا «مأرب» عاصمة لهم بدل «صرواح» وتوجد أنقاض مأرب على بعد ١٩٢ كيلومتراً شرقي صنعاء^(١).

(١) اليمن عبر التاريخ ص ٧٧، ٨٣، ١٢٤، ١٣٠، تاريخ العرب قبل الإسلام ١٠١-١١٢.

ديانات العرب

كان معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل - عليه السلام - حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم - عليه السلام - فكانت تعبد الله وتوحده وتدين بدينه، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظًا مما ذكروا به، إلا أنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم، حتى جاء عمرو بن لحي رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس، ودانوا له ظنًا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء، ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقًا، لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله، فأجابوه. ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة، لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم^(١).

ومن أقدم أصنامهم مناة، كانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد، ثم اتخذوا اللات في الطائف، ثم اتخذوا العزى بوادي نخلة، هذه الثلاث أكبر أوثانهم، ثم كثر الشرك، وكثرت الأوثان في كل بقعة من الحجاز، ويذكر أن عمرو بن لحي كان له رثي من الجن، فأخبره بأن أصنام قوم نوح - ودًا وسوعًا ويغوث ويعوق ونسرا - مدفونة بجدة فأتاها فاستشارها، ثم أوردتها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل^(٢)، فذهبت بها إلى أوطانها، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت صنم. وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعنها حتى تساقطت، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت^(٣).

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية، الذين

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٢.

(٢) صحيح البخاري ١/٢٢٢.

(٣) صحيح البخاري ١٦١٠، ٢٤٧٨، ٣٣٥١، ٣٣٥٢، ٤٢٨٧، ٤٢٨٨، ٤٧٢٠ ومختصر سيرة الرسول ﷺ

للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٣، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٤.

صور من المجتمع العربي الجاهلي

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها؛ بقي لنا أن نتكلم حول الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية، والخلقية، وفيما يلي بيانها بإيجاز:

الحالة الاجتماعية:

كانت في العرب أوساط متنوعة، تختلف أحوال بعضها عن بعض، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر، وكانت محترمة مصونة تسل دونها السيوف، وتراق الدماء، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة، وصاحب الكلمة فيها، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتت عليهم.

بينما كانت هذه حال الأشراف، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة، روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فكان منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها أرسلني إلى فلان فاستبضع منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة. فيدخلون على المرأة كلهم يصيبيها. فإذا حملت، ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، وهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحببت منهم باسمه فيلحق به ولدها ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا

نسب النبي ﷺ وأسرته

نسب النبي ﷺ:

نسب النبي ﷺ ثلاثة أجزاء: جزء اتفق على صحته أهل السير والأنساب وهو إلى عدنان، وجزء اختلفوا فيه ما بين متوقف فيه وقائل به، وهو ما فوق عدنان إلى إبراهيم عليه السلام، وجزء لا نشك أن فيه أمورًا غير صحيحة، وهو ما فوق إبراهيم إلى آدم عليهما السلام، وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذا، وهاك تفصيل تلك الأجزاء الثلاثة:

الجزء الأول: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شيبه - بن هاشم - واسمه عمرو - بن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قصي - واسمه زيد - بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر - وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك بن النضر - واسمه قيس - بن كنانة بن خزيمة بن مدركة - واسمه عامر - بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان^(١).

الجزء الثاني: ما فوق عدنان، وعدنان هو ابن أد بن هميص بن سلامان بن عوص بن بوز بن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم ابن ناحش بن ماخي بن عيضم بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر بن يثربي بن يحزن بن يلحن بن أرعوي بن عيضم بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمي بن مزي بن عوضه بن عرام بن قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام^(٢).

الجزء الثالث: ما فوق إبراهيم عليه السلام، وهو ابن تارح - واسمه أزر - بن ناحور ابن ساروع - أو ساروغ - بن راعو بن فالخ بن عابر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح - عليه السلام - بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ - يقال هو إدريس عليه السلام - ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوشة بن شيث بن آدم عليهما السلام^(٣).

(١) ابن هشام ١/١، ٢، تاريخ الطبري ٢/٢٣٩-٢٧١.

(٢) ابن سعد ١/٥٦، ٥٧، تاريخ الطبري ٢/٢٧٢ وانظر للاختلاف في هذا الجزء تاريخ الطبري ٢/٢٧١-٢٧٦ وفتح الباري ٦/٦٢١-٦٢٣.

(٣) ابن هشام ١/٢، ٣، ٤، تاريخ الطبري ٢/٢٧٦ واختلفت المصادر في تلفظ بعض هذه الأسماء وكذا سقط =

